



قراءة دينية في رواية قواعد العشق الأربعون

بقلم: رويدة الدامي





قراءة دينية في رواية (قواعد العشق الأربعون)

بقلم : رويدة الدعي

تحدث الكاتبة (أليف شافاق) في بداية روايتها " قواعد العشق الأربعون " عن عائلة يهودية تتكون من زوجين وثلاثة أولاد، ويظهر لنا المشهد الأول حجم التششت بين أفراد هذه العائلة والهوة الكبيرة التي حدثت بينهم!

الابنة الكبرى تصر على الزواج من عشيقها، الأم تسألها إن كان هناك حمل؟ فتتفض الفتاة لتعلن للجميع أن الزواج ليس الهدف منه الحمل مطلقاً، يتدخل الأب ليهدأ من روع ابنته وذلك بإخبارها عن مدى سعادته حين كانت تلتقي بعشيقها لمدة ثمانية أشهر!!

لكنه الآن متردد في مسألة زواجها من ذلك الشاب، فتتهمه ابنته بالتعصب الديني والعنصرية وبأنه يرفض عشيقها فقط لأنه غير يهودي، فيصمت الأب دون أن يرد عليها ببنت شفة وهو يتساءل مع نفسه هل فعلاً هو إنسان غير منفتح

وغير مثقف كما تحاول ابنته الآن أن تتهمه؟!



تعود الأم لتحاول أن تثني من عزم ابنتها في الزواج بذلك الشاب بحجة أن اللقاءات المتكررة بين العشيقين تختلف عن الحياة الزوجية، ففتهم البنت والدتها بالغيرة منها وبأنها أصبحت متقدمة بالعمر وتشعر بفراغ عاطفي كبير تجاه زوجها لذلك لا تريد من ابنتها الشابة أن تعيش حياة عاطفية غيرة منها لا أكثر!!

إلى هنا نلاحظ أن هذه العائلة التي صورتها لنا الكاتبة التركية لا تمت إلى حياة مجتمعاتنا العربية والشرقية والإسلامية بأي صلة، ورغم ذلك أكثر شبابنا المسلم عندما وقعت الرواية بين يديه صار يطبقها على نفسه متناسيًا الفرق الشاسع بين مبادئ دينه وقيمه الأخلاقية وبين ما تصوره لنا هذه الرواية!!

تستمر الأحداث فإذا بنا نرى الأم التي إتهمتها ابنتها بأنها تغار منها بسبب فراغها العاطفي تتجه نحو إثبات صحة إدعاء ابنتها لتبحث عن رجل آخر يسد ذلك الفراغ فما عاد زوجها يشعرها بقيمتها في قلبه!

فتعقد علاقة عبر بريدها الإلكتروني مع رجل صوفي الأفكار يدعى (عزيز) والذي يشجعها في ذلك عملها على كتابة تقرير عن رواية تاريخية تتحدث عن الرجل الصوفي

(جلال الدين الرومي) ومرشده الروحي (شمس التبريزي)
وعزيز هذا تشبه شخصيته إلى حد كبير شخصية ذلك التبريزي!!



الرواية تظهر لنا جلال الدين الرومي في البدء رجل دين عادي جداً يحاول أن يرشد الناس إلى الدين الصحيح من خلال نصائحه الكثيرة عن الدين والصلاة والصيام وترك المسكرات والزنا والسرقة والكذب، والعودة الصادقة لاحضان الدين الحنيف من خلال التوبة والندم والاستغفار..

إلى هنا جلال الدين يسير كما يريد له الله ورسوله، يلتقي بعدها بشمس التبريزي - الذي قلنا بأن البطلة أعجبت بعزیز لأنه يشبهه إلى حد كبير بشخصيته وأفكاره - وتبدأ المغالطات منذ التقاء جلال الدين بشمس التبريزي الذي يقرر أن يجعل من جلال الدين الرومي رجلاً صوفيًا يحب الله حبًا قلبيًا بعيدًا عن مظاهر التدين كالصلاة والصيام وغيرها!

حب شمس التبريزي لله نابع من القلب - هكذا تبين لنا الرواية - وما ينبع من القلب لا يهم بعدها أن يتجسد في الأعمال والمظاهر، لذلك يمكن أن نكون محبين لله تعالى ومحبين للسكران والزنا في الوقت نفسه، لأن حب الله يعني حب الناس جميعًا حتى وإن كانوا عصاة مذنبين!



توضح لنا الرواية أنه من الخطأ الفاحش أن ننبد الراقصات والزانيات لأنهن في النهاية لهن إنسانيتهن التي تفرض علينا أن نحبهن كما يحب الله تعالى!

حاولت الرواية وفي فصول كثيرة أن توصل لنا فكرة مفادها (إذا كنت محباً لله بقلبك لا يهم ما تفعله في الخارج) فقد تكون سكيراً زانياً تاركاً لصلاتك لكنك تحب الله، أنت إذاً أفضل من ذلك الذي يصلي ويصوم ويعبد ربه سنوات وسنوات وقد لا يكون في قلبه حباً صادقاً لله!! كما إن الزانية أو الراقصة إذا كان في قلبها ذلك الحب لله ممكن أن تكون أفضل من تلك المحجبة العفيفة الطاهرة التي تحفظ عفتها وشرفها!!

انا الآن لا أريد أن أسخر من أفكار شمس التبريزي، أو جلال الدين الرومي أو حتى من أفكار المذهب الصوفي، لأن السخرية والاستهزاء ليست من أخلاق ديننا الذي تربينا عليه، لكني سأوضح من خلال هذه القراءة الدينية كيف يرفض ديننا الإسلامي أفكار التصوف التي اوضحتها لنا هذه الرواية التاريخية وأنا إذ أنتقد شخصية الرومي أو التبريزي فإنما يكون انتقادي لهما ضمن شخصيتهما في هذه الرواية التي أخذت صداها في العالم العربي.



إن مما تشير إليه الرواية عن طريق شخصية ذلك التبريزي هو أننا يجب أن لا نحاول إصلاح ظواهرنا وهذا ما حذاه إلى إرسال تلميذه ليشرب الخمر ثم نفس الشيء فعله مع رجل الدين " جلال الدين الرومي " إذ أرسله أيضًا إلى الحانة حيث بيع الخمر وطلب منه أن يشربه بحجة أن الإنسان يجب أن لا يلتفت أبدًا لإصلاح الظاهر طمعًا بالسمعة الطيبة فهذا يتنافى مع حقيقة إخلاصه لله، وإن المؤمن يجب أن يتخلى عن سمعته الطيبة حتى يقترب من الله أكثر!!

فنرى جلال الدين الرومي ذلك الرجل الصالح الذي كان ينصح الناس بإصلاح ظواهرهم لأن الظاهر إنما هو انعكاس للباطن يصبح هو بنفسه مرتادًا للأماكن المشبوهة التي تباع الخمر!!

لا أعرف حقًا كيف ينظر الكثير من المسلمين إلى هذه الرواية على أنها مفيدة جدًا وكان لها تأثير جيد في حياتهم وهي تحمل كل هذه التناقضات والتجاوزات على أحكام الدين؟!!



تنتشر بعض الأقوال للرومي بأن القرآن الكريم يعيش في داخله وبأنه ذرة تراب في نعل رسول الله، فهل رسول الله والقرآن الكريم أمرانا يوماً بالتخلي عن السمعة الطيبة وتشويه صورتنا أمام الناس بارتكاب المحرمات والاقتراب من المعاصي لا لشيء إلا لنقترب أكثر من الله؟!!

كيف اقترب من الله أكثر وأنا أعصيه أمام خلقه؟ كيف سأشجعهم على طاعة أوامر الله وأنا أخالفها أمام أعينهم؟ إن كان الأمر كذلك لماذا يفرض الله علينا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟!!

إن تركت أنا الحجاب وخرجت بكامل تبرجي إلى الشارع بحجة أنني أريد التخلي عن سمعتي الطيبة حتى يكون إخلاصي لله وحده، ثم بثت هذا الأمر بين خلقه وصار الكثير يصدقني ويتصرف مثلي كيف ستكون الحياة حينها؟!!

أين طاعة الله الذي نحبه - بقلوبنا - وهل سيبقى من يطيعه أصلاً؟! بل هل يبقى من سيأمر بالمعروف وينهى عن المنكر إن كنت أنا الداعية إلى الله أفعل المعاصي والذنوب بل وأنشرها بين الناس فماذا يفعلون بعدها أولئك الذين لا يعترفون بالله

والدين أصلاً؟!!



هكذا حصل مع جلال الدين الرومي - حسب ما
تظهره الرواية - فجأة وبأمر من التبريزي يتخلى
عن سمعته الطيبة بين الجميع ويترك النصيحة
والأمر بالمعروف ويبدأ بالتغني بالحب والعشق عن
طريق أشعار وحركات - الدراويش - وهو يرقص
وسط الشارع ويلتف الناس من حوله إذ لم يعد
للسمعة الطيبة أهمية مطلقاً، انه منذ الآن عليه أن
يساعد العاهرة والزاني والسكير بل ويظهر لهم حبه
واحترامه وتقديره!!

لا أعلم فعلاً كيف أن هذا الرجل يعيش القرآن في
قلبه وقد تخلى بهذه السرعة عن وظيفته الفقهية
وانشغل بالشعر والرقص حول نفسه بحجة أنه يدور
حول مصدر الحب وهو قلبه!!

فهل يريد الله أن نرقص حول قلوبنا التي تحتوي
القرآن - حسب تعبير الرومي - أم يريد منا أن ننفذ
ما جاء في ذلك الكتاب من أوامر ونواهي؟؟



ومختصر القصة أعلاه (أن التبريزي يرسل رجل دين ليشتري الخمر ويرقص على أشعار العشق والغزل وسط الشارع فماذا أبقى شمس التبريزي بفعلته هذه من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟!) ألا ترون معي بأنه وبإغوائه للرومي قد ضرب بآيات القرآن الكريم عرض الحائط!!

وإن كان (الحب) هو الفاصل في النهاية فلماذا وضع الله جنة ونار؟ لماذا لم يخلق الجنة فقط!!

بل لماذا خلق النار أصلاً؟ وإن قال لنا التبريزي وخلفه ردد الرومي بأن الله يحب جميع البشر ولا يمكن أن يعذبهم بناره.. فأين إذاً إيمانها وتصديقها بالقرآن الكريم وبرسول الله؟!

ماذا يقولان عن عشرات الآيات الشريفة التي تتوعد العاصين والمعاندين والمخالفين لأوامر الله تعالى بنار جهنم؟!

ثم لماذا أنزل الله مئة وأربعة عشر سورة في ثلاثين جزءاً ولمدة ثلاثة وعشرون عاماً؟! لماذا لم ينزل لنا آية واحدة توضح أننا لو آمننا بوجوده سبحانه ثم استشعرنا حباً له في قلوبنا فهذا يكفي؟!

ما فائدة كل تلك الأحكام التي امتلأ بها القرآن الكريم؟

لماذا يخبرنا وبآيات صريحة لا يختلف عليها إثنان بوجوب الصلاة والصوم والزكاة والحج وبر الوالدين والصدقة وحرمة تبرج النساء وحرمة شرب الخمر وحرمة السرقة وحرمة الكذب وحرمة القتل من غير جرم وحرمة شهادة الزور.. وووو... هل كل هذه الأحكام وردت عبثاً في القرآن الكريم؟!

هل ممكن أن ينزل الله كتابه المقدس على رسوله عبثاً ليأتي بعد ذلك التبريزي ويخبرنا أنه لا أهمية أبداً للأحكام وكلها عبارة عن مظاهر!! بل أكثر من هذا إذ يجب أن نتخلى عنها ونظهر عكس ذلك لأن السمعة الطيبة تبعدنا عن الله تعالى وتجعل الشكوك تدور حول إخلاصنا له سبحانه!!؟



لنأتي الآن إلى تصرفات شمس التبريزي مع تلك الفتاة (كيميا) كيف كان لقاءه الأول معها؟ وكيف كان لقاءه الثاني؟ كيف استطاع شمس (الذي يعشق الله) من غواية الفتاة واستمالة قلبها نحوه في حين أنه ظاهريًا كان لا يتحدث معها إلا عن الله والقرآن!!

أما حركاته ونظراته فكانت شيطانية لا توحى للقارئ إلا عن رغبة شمس في الإيقاع بتلك الفتاة وإلا لماذا كان يلمسها وينظر إليها بشغف؟!

ألم يكن شمس يعلم بأن الخلوة بين الرجل والمرأة محرمة شرعًا عند جميع مذاهب المسلمين؟!

ألم يكن يعلم أيضًا بوجوب غض البصر؟! وعندما تزوج شمس من تلك الفتاة ماذا فعل؟ لقد قلب الموازين وحرّم على نفسه ما أحلّه الله عليه، فامتنع عن التقرب منها بحجة إنه لا يريد أن يختلي إلا بالله فهو إنما خُلِقَ ليكون محبًا وعاشقًا لله لا غيره!!

والسؤال هنا : لماذا وافق شمس

على الزواج أصلًا؟ بل لماذا

كان يوحى لكيميا بإعجابه وميوله نحوها؟!



في البداية أحلّ لنفسه التقرب منها والنظر إليها ولمسها والبقاء معها لوحده والحديث بشغف إليها وكل هذا كان محرم عليه، ثم عندما صارت زوجته حرمها على نفسه!! فما هو يعصي الله مرتين في قصته مع تلك الفتاة التي كانت ضحية لعناده وخطرسته وتلاعبه بأحكام الله تعالى فماتت نتيجة هذا الجفاء والتباعد دون أن تبدو من شمس أي ردة فعل تجاه موتها!!

لنرى الآن ماذا يقول الله تعالى في محكم كتابه الكريم عن هذه الحالات الشاذة بالنسبة للدين الإسلامي حيث جاء في سورة الأعراف - آية ٣٢ (قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون).

ألم يقرأ شمس قوله تعالى (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجًا لتسكنوا إليها..)؟!

كما أن قصة تلك الفتاة تحتوي على الكثير من الألفاظ والمشاهد الخادشة للحياء وبحثها عن أساليب لجذب زوجها والتي تجعل في تلك الرواية إشكالية

وحرمة شرعية في مسألة قراءتها، وهذا ما جعل الكثير من المؤمنين والمؤمنات الملتزمين بشريعة الله تعالى يتركوا قراءة الرواية عند هذه النقطة ويشهد ربي لولا أنني أردت أن أكتب نقدي هذا وأردته أن يكون كاملاً وتاماً لما أكملت تلك الرواية لكن مسؤوليتي كباحثة إسلامية اجبرتني على إكمالها!

الشيء الذي يلفت أنظار الجميع إلى هذه الرواية أكثر من أي شيء آخر هو تداخل رواية (الكفر الحلو) مع الرواية الأصلية، ولو دققنا في عنوان الرواية الداخلية لوجدنا أن الكاتبة نفسها تعتبر تعاليم وتقاليد المذهب الصوفي نوع من أنواع الكفر لكنه حلو وممتع!! وإلا لماذا اختارت لفظة (الكفر) لوصف العلاقة بين الرومي والتبريزي!؟

الرواية أيضا تشجع على الخيانة الزوجية منذ أولى صفحاتها بوصف علاقة الحب التي حدثت بين إيلا وعزيز!!



كما أنها تحتوي على الكثير من الأمور التي
يرفضها حتى العقل عندما يدعي التبريزي رؤيته
للملائكة!!

وأخيرًا أقول بأن أهم فارق بين المذهب الصوفي
الذي تشجع عليه هذه الرواية وبين الإسلام الحقيقي
هو أن المذهب الصوفي يعتبر (الحب) هو الأساس
في مسألة القرب من الله دون النظر بأهمية للعبادات
والأحكام الشرعية ، أما الإسلام فيعتبر (التقوى)
هي الأساس، والتقوى هي أن تتقي الله بإطاعة
أوامره وهي في القرآن تعني مخافة الله.. قال تعالى
(وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى
فإن الجنة هي المأوى) ولكن إن لم يكن هناك عقاب
على اتباعنا للهوى وانجرافنا وراء الأعمال
المحرمة فلماذا نخاف الله أصلاً؟ وما الذي يقصده
سبحانه من قوله (وأما من خاف مقام ربه..)؟!

وبعد أن أثبتنا وجود العقاب الأخروي ووجوب
مخافة الله الذي توعد كل من يخالف أوامره بالعذاب
ليس لأنه ظالم أو لا يحبنا أو يريد بنا سوءًا بل لأن
أوامره هي أساس العدل وأساس الخير وكلها حكمة

ومصلحة للبشرية جمعاء فمن خالفها إنما أراد أن
يعيث في الأرض فسادًا حتى وإن كان بفساده هذا لا
يؤذي سوى نفسه!

وأخيرًا أذكركم بقوله تعالى (إن أكرمكم عند الله
أتقاكم) وهذا أكبر وأوضح دليل ينفي مسألة أن
الحب هو أساس الدين ويؤكد على أن (التقوى) لا
غيرها هي الفاصل في حقيقة قربنا واتصالنا بالله
تعالى.



والحمد لله رب العالمين

